دراسة المعاظلة اللفظية في شعر أبي الطيّب المتنبّي من منظر إبن الأثير (رؤية نقدية)

الدكتور أحمد باشازانوس[1]

على خالقى

الملخّص

البيان من أجلّ نعم الله على الإنسان، و هو من أهم خصائصه الإنسانية التي تميزه عن غيره من الكائنات الحية. و البيان و إن كان وسيلة للتخاطب و التعبير بين الناس كما هو معلوم، فهو صورة عن العقل الإنساني، و ثمرة من ثمراته، و أثر من آثاره.إنّ الله تبارک و تعالى مدح القرآن بالبيان و الإفصاح، و بحسن التفصيل و الإيضاح، و بجودة الإفهام و حكمة الإبلاغ و قال تعالى:﴿ هذا بيان للناس﴾(آل عمران/138). إبن الأثير«و هو من أهم ناقدي البلاغي» يؤكّد أنّ في هذا التعاظل خروجاً عن سنة العرب الذين هم الأصل في هذه اللغة و فصاحتها، دون أن يخفل بأنّ الخروج عن السنن شذوذ، و أنّ الشذوذ – لغوياً – هو النادر الطريف، و من هنا وجد المجتمع الشعبي في هذا الشذوذ اللغوي مادة ثرة طريفة تضحكه بعد أن سقطت محاذيرها الاعتقادية أشدّ الإضحاك، و تثير طاقاته الصوتية و قدراته اللسانية، فكان فنّ المعاظلات اللسانية واحداً من فنون القول عنده، بوظائفه الإمتاعية و التعليمية.إنّنا نسعى في هذه المقالة أن نأتي نظرة جامعة حول ظاهرة المعاظلة اللفظية و تجلياتها في الشعر المتنبي، و دراسة حول آراء أفضل النقّاد البلاغة في العرب، و المنهج الذي إعتمدناه في هذه المقالة منهج الوصفي التحليلي.

الكلمات الرئيسية: النقد البلاغي، المعاظلة اللفظية، أبوالطيب المتنبي، الشعر، إبن الأثى

1–توطئة

الفصاحة عند العلماء من مقومات البلاغة، فكلّ بليغ فصيح و ليس العكس، و ذكر العلماء أنّ الفصاحة يوصف بها المفرد و الكلام و المتكلم، و البلاغة يوصف بها الأخيران فقط (القزويني،2003م:24). و أمّا

البلاغة في الكلام، فهي مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته (نفس المصدر:33). البيان ضرورة للأنبياء و المرسلين عليهم السلام، لأنهم يواجهون أقوامهم بالحجة القاطعة و القول الفصل، فلابد لهم من حسن البيان، بل هم عليهم السلام أئمة البيان في هذا العالم. قال تعالى: ﴿و ما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم﴾(سوره ابراهيم/4).فعملية البيان في البداية و النهاية ضرورة للإنسان حتى يعيش على وجه الأرض، و يتواصل مع بني جنسه، و ضرورة للأنبياء و المرسلين حتى يقيموا منهج الله في الأرض، و ضرورة لأعداء هذا المنهج أيضاً الذين نصبوا أنفسهم لمواجهة الأنبياء و المرسلين بالكلام المنمق أو زخرف القول كما ذكر القرآن الكريم. و في هذا الصدد يقول الجاحظ:«و ذكر الله تبارك و تعالى جميل بلائه في تعليم البيان، و عظيم نعمته في تقويم اللسان»، فقال:﴿الرحمن، علم القرآن، خلق الإنسان، علمه البيان﴾(الرحمن/1-4)، و سمّاه فرقاناً كما سماه قرآناً، و قال: ﴿عربي مبين﴾(سورة النحل/103).

أعجز المتنبي كثيراً من البلغاء، و تفوق على جميع شعراء عصره، و فرض على الأيام خلود شعره، ولكن بالرغم من هذا الإعجاز الذي اشتهر به جاءت بعض أبياته شاذّ مبهمة؛ ثمة ضرب من ضروب التعبير أو التركيب اللغوي أو التأليف أو النظم «نظم الألفاظ في الكلام» يتألف على نحو مخصوص تقوم اللفظة فيه عن عمد على تنافر الجرس في الحروف و تفتقد اللفظة المركبة فيه عن عمد أيضاً تناغمها و اتساقها و انسجامها مع ما يجاورها في البناء اللفظي طبقاً لعلاقة التجاور في السياق و يختبر البعض بتكرارها شفاهياً ثلاث مرات فأكثر، دون توقف أو غلط أو تلكؤ للدلالة على فصاحة اللسان فالتنافر الصوتي و التعاظل اللفظي هنا أمران مقصودان في هذا الضرب من التأليف الأدبي الشائع في المجتمعات الشعبية التي ترى في القدرة على ترديده – بنجاح – مقياساً من مقاييس فصاحة اللسان فهو من هذه الناحية فن من فنون القول الشفاهية التي لا تزال حية في البيئات العربية حتى اليوم، و مع ذلك، فهو لم يحظ بأدنى قدر من الفولكلوريين العرب، جمعاً أو تصنيفاً أو دراسة، بل ليس ثمة مصطلح علمي معروف بينهم، يشير إليه أو

يدل عليه، يقابل المصطلح الإنجليزي الشائع[1]، و من ثمّ فإنّ إبن الأثير يقترح هنا مصطلحاً يستعيره من تراث النقدي و البلاغي، هو المعاظلة، و تجمع على معاظلات، على أن نقرنها بسمة وصفية هي «اللسانية» و بذلك يصبح المصطلح المقترح هو المعاظلات اللسانية تمييزاً لها عن المعاظلات البلاغية باعتبارها عيوباً لفظية أو معنوية تحد من فصاحة التعبير و طلاقة اللسان، ينبغي أن يتجنبها الشاعر أو الخطيب و عن معاظلات القوافي باعتبارها أيضاً عيباً فنياً في قوافي الشعر يطلق عليه عظال القوافي، الذي يعرف اصطلاحاً باسم التضمين، حيث يضمن الشاعر أو يعلق قافية البيت بما بعده على وجه لا يستقبل بالإفادة.إذا كانت المعاظلة في الكلام تعني – لغوياً – تعقيده و موالاة بعضه فوق بعض، و تكراره و ترجيعه و تتابعه كما تعني – بلاغياً – التداخل و التراكب في التعبير الأدبي على نحو يكاد لا يبين، و يذهب بشطر من فصاحته و يسبب عثاراً في جرس الألفاظ و اتساق نغمها و سلامة تركيبها، لفظياً و معنوياً و هو أمر نبه إليه و حذر منه النقاد و البلاغيون العرب منذ أوليات تدوين البيان العربي و التأليف البلاغي على يد الجاحظ (255 هـ) في البيان و التبيين عندما حدثنا عن مقتضيات الفصاحة و الإبانة و ضوابطها الصوتية.

2– خلفية البحث:

إنّ البحث عن المفارقة التصويريّة في البلدان العربيّة قليل جدّاً و قلّما نجد مقالاً تكلّف البحث عنها، و منها: «حركية الصورة الفنية في شعر المتنبي (الصورة السمعية أنموذجا)» من سيّد مهدى مسبوق، في مجلة لسان مبين، الصيف 1390، العدد4. و « الموازنة بين المتنبي والجواهري في الكرامة الإنسانية»، من سودابه مظفرى، في مجلة الأدب العربي بجامعة طهران، العدد4، 1391. و يكتب مقالات و كتب كثيرة حول المتنبّي و ميزاته الأدبية؛ مع هذا لم يبحث عن ظاهرة المعاظلة اللفظية في الشعر و خاصة الشعر أبو

[1]- Tongue Twister

الطيّب المتنبي في البلدان العربية و البلد ايران و لأول مرّة إبن الأثير يكتب من هذا الموضع النقدي في علم البلاغة و نحن قمنا بإيراد هذا البحث، و تحليل حوله في أشعار المتنبي.

3-نبذة عن حياة المتنبّي و ميزاته الأدبية

ولد أبوالطيب أحمد بن الحسين سنة303 هـ،ق في حي بني كِندة و لذلک يقال به الكندي و الكوفي أيضاً. و لا نعلم من نسبه شيئاً آخرَ إلّا أنّه كان يفتخر فيما بعدَ و بشرف قومه و شجاعتهم و بأسهم و بقومِ جدته لأمه خاصةً.إن المتنبي بعيد الطموح شديد العصبية معتداً بنفسه يتعاظم على الناس. و إمتاز المتنبي بالإيثار من المعاني بضرب الأمثال و المبالغة في كل شيءٍ و كان أسلوبه فخماً متيناً جداً و غنياً بالتشابية البارعة و الإستعارات الأنيقة و بعض الصناعة اللفظية و لم يُعر أسلوب المتنبي إلّا للفخر و المديح و كان الفخر و المديح يغلبان على كل فن آخرَ من فنون المتنبى.أمّا الحكمة فنثرها المتنبي في جميع قصائدها و له شيءٌ مِن الوصف و من الشعر الوجداني الخالص.(فرّوخ ،1981م: 464) المتنبي من أعجب الشخصيّات التي عرفها تاريخ الأدب العربي، لأنّها شخصيبة كثيرة الحسنات و كثيرة السيئات، كثيرة حسنات العبقريّة و الشمم، و كثيرة السيئات لأخلاق المستعصية القاسية التي لا ترى غير طريق الكبرياء منطلقاً للآمال و الأعمال و هي في عنفوانها الجارف و عنجهيّتها الصارخة بغيضة بقدر ما هي محبّبة؛ و هي في حياتها و مماتها حديث الدنيا و شُغل الناس (الفاخوري،1986م: 786). شعر المتنبي كان صورة صادقة لعصره، و حياته، فهو يحدثك عما كان في عصره من ثورات، و اضطرابات، و يدلّك على ما كان به من مذاهب، و آراء، و نضج العلم و الفلسفة.كما يمثل شعره حياته المضطربة: فذكر فيه طموحه وعلمه، وعقله وشجاعته، وسخطه ورضاه، وحرصه على المال، كما تجلت القوة في معانيه، و أخيلته، و ألفاظه، و عباراته. و قد تميز خياله بالقوة والخصابة فكانت ألفاظه جزلة، وعباراته رصينة، تلائم قوة روحه، و قوة معانيه، وخصب أخيلته، و هو ينطلق في عباراته انطلاقاً و لا يعنى فيها كثيراً بالمحسنات و الصناعة.و يقول الشاعر العراقي فالح الحجية في كتابه في الادب و الفنّ انّ المتنبي يعتبر و بحق شاعر العرب الأكبر عبر العص

4-توظيف المعاظلة

و بيّن أبو هلال العسكري السبيل الأمثل لصناعة الكلام الجيد و يقول: «إذا أردت أن تصنع كلاماً، فأخطر معانيه ببالك، و تنوق له كرائم اللفظ، و اجعلها على ذكر منك، ليقرب عليك تناولها، و لا يتعبك تطلبها، و اعمله ما دمت في شباب نشاطك، فإذا غشيك الفتور، و تخونك الملال، فأمسك، فإن الكثير مع الملال قليل، و النفيس مع الضجر خسيس، و الخواطر كالينابيع، يسقى منها شيء بعد شيء، فتجد حاجتك من الري، و تنال أربك من المنفعة؛ فإذا أكثرت عليها، نضب ماؤها، و قلّ عنك غناؤها» (العسكري،1981م: 151). المعاظلة تنقسم إلى قسمين لفظية و معنوية. المعاظلة اللفظية: «و هي المخصوصة بالذكر ها هنا في باب صناعة الألفاظ و حقيقتها مأخوذة من قولهم تعاظلت الجرادتان، إذا ركبت إحداهما الأخرى، فسمّي الكلام المتراكب في ألفاظه أو في معانيه المعاظلة مأخوذاً من ذلك و هو اسم لائق بمسماه.(إبن أثير،1972م:305) و لعل ابن سنان من أفضل البلاغيين العرب – بعد الجاحظ – و أكثرهم عناية بخصائص الفصاحة في كتابه العظيم «سر الفصحاة» و قد حذا حذو الجاحظ في تقسيم الفصاحة – باعتبارها نعتاً للألفاظ – إلى قسمين، الأول منهما يوجد في اللفظة الواحدة على انفرادها من غير أن ينضم إليها شيء من الألفاظ أو تؤلف معه، و الثاني يوجد في الألفاظ المنظومة، بعضها مع بعض. و يحدد تبعاً لذلك شروطاً بعينها متى تكاملت فلا مزيد على فصاحة تلك الألفاظ، و بوجود أضدادها تستحق الذم و الأطراح.(الخفاجي،1982م: 157)

فإذا ما فرغ من شروط اللفظة المفردة، انتقل إلى شروط الفصاحة في الكلام المنظوم و ذكر من بينها، وضع الألفاظ موضعها اللائق بها، لئلا يكون الكلام شديد المداخلة، يركب بعضه بعضاً، و هذا حد المعاظلة. لأنّ المعاظلة كما يشرح مدلولها اللغوي و الاصطلاحي، و هو يذهب في ذلك مذهب الجاحظ – لا قدامه – هي هذا التداخل الشديد بين الألفاظ المركبة، فتلك هي حقيقة المعاظلة، لا تلك التي ذهب إليها قدامة باعتبارها عنده هي فأحسن الاستعارة. (جعفر،1980م: 176) و يذهب ابن الأثير مذهب ابن سنان في فصاحة الألفاظ، مميزاً في وضوح بين ضربين من المعاظلات التي تعتري ألفاظ الكلام المنثور أو المنظوم، هما: المعاظلة اللفظية و المعاظلة المعنوية. يشترط إبن سنان لحسن التأليف شروطاً متعددة و منها:

ألا يكون في الكلام تقديم و تأخير، ألا يكون مقلوباً، ألا تقع الكلمة حشواً، و ألا يكون شديد المداخلة و هذه هي المعاظلة.و معيار هذا كلّه الألفة و الوضوح (الخفاجي،1982م، 101)

5-المعاظلة اللفظية في شعر المتنبي

و يستخدم متنبّي المعاظلة اللفظية في أنحاء من أشعاره كثيراً. و يقول إبن الأثير إذا حققت القول في بيان المعاظلة و الكشف عن حقيقتها فإني أتبع ذلك بتقسيم القسم اللفظي منها الذي أنا بصدد ذكره هاهنا فأقول: اقسام المعاظلة اللفظية إنّي تأملت بالاستقراء من الأشعار قديمها و محدثها، و من النظر في حقيقتها نفسها، فوجدتها تنقسم إلى خمسة أقسام:

5-1- أدوات الكلام

الأول منها يختص بأدوات الكلام نحو «من و إلى و عن و على»، و أشباهها، فإن منها ما يسهل النطق به إذا ورد مع أخواته و منها ما لا يسهل، بل يرد ثقيلاً على اللسان، و لكلّ موضع يخصه من السبك.ورد قول أبي الطيب المتنبي في القصيدة« **عَواذلُ ذاتِ الخَال في حَواسِد**»:

وَحيدٌ مِنَ الخلان في كلّ بلدةٍ   إذا عَظُمَ المطلوبُ قلَّ المساعدُ

و تسعِدُني في غَمرةٍ بعدَ غَمرةٍ   سَبوُحٌ لَها مِنها عَليها شَواهــدُ

تَثنى على قدرِ الطَعان كأنّما   مَفاصلُها تحتَ الرمــاحِ مَرَوادُ

(المتنبي، 1997م: 84)

فقوله «لها منها عليها» من الكلام المتعاظل الذي يثقل النطق به. و على أنّه قد وردت هذه الكلمات و هم «لها» و « منها» و «عليها» في موضع آخر، فلم يثقل و لكن في هذه القصيدة إتيان هذه الحروف الثلاثة متعاقبة و هذا الأمر يثقل الكلام حتّى يصبح أداء الكلام من الثقيل الثقيل.

و كذلك يأتي المتنبي قوله في مكان آخر من القصيدة «**طِوالُ قناً تُطالعنا قصار**»:

تبيتُ وُفودُهُم تسرِي إليهِ وَ جَدواهُ التي سألوه اغتِفارُ

فَخلَفَهُم بِرَدّ البيضِ عَنهُم وَ هَامُهُم لَه مَعَهُم مُعَارُ

هُمُ ممّن أدُمّ لهُم عَليه كريمُ العِرقِ و الحَسبِ النُضّارِ

(المتنبي،1997م: 150)

وقوله «و هامهم له معهم» مما يثقل النطق به، و يتعثر اللسان فيه، لكنه أقرب حالاً من الأول.كما يلاحظ من عيوب الشعر و هي المعاظلة، و يقول المتنبي في القصيدة «**ما لنا كلّنا جوٍ يا رسول**»:

صَحبَتني على الفَلاةِ فتـــاةٌ عادةُ اللَونِ عندَها التبديلُ

سَتَرتكَ الحِجالُ عَنها وَلكِن بكِ مِنهَا مِن اللَمَى تقبيلُ

مِثلُها أنتِ لوّحَتني و أسقَمتِ و زَادَت أبهاكُما العُطبُولُ

(المتنبي، 1997م: 278)

كما نرى في الأبيات المذكورة الشاعر يبدأ كلامه بالأبيات الجميلة ولكن المخاطب يلقى بثلاثة حروف الجر الذي يؤتى بعضهم ببعض، فقوله «بک منها من اللمى» من الثقيل الثقيل.ربّما يجيء مثلاً «من عن طريق اليمين» في موضع آخر و لايعدّ من الثقيل الكلام أمّا هناک ورد المتنبي ثلاثة الحروف و في رأي قدماء من إبن الأثير و إبن سنان يعتبر من عيوب الكلام الذي يضرّ بفصاحة الكلام و يقلّ من جمالة و رشاقة الجملة.يوصى ابن سنان الكاتب و الشاعر معاً، بترک التكلف و الإسترسال مع الطبع في الإبداع، ملحاً على الصورة اللفظية للصناعة الكلامية.و إذا كان تكرار الحروف المتجاورة قبيحاً عنده، فإنّ تكرار الكلمة بعينها أقبح و أشنع، إلّا ما كان التكرار فيه لغرض. و حدّ ذلک عنده، أن يكون المعنى مبنياً عليه و مقصوراً على إعادة اللفظ بعينه (الخفاجي،1982م:102-103).

5-2- تكرير الحروف

القسم الثاني من المعاظلة اللفظية، تختص بتكرير الحروف، و ليس ذلك ممّا يتعلق بتكرير الألفاظ، و لا بتكرير المعاني، ممّا يأتي ذكره في باب التكرير في المقالة الثانية، و إنّما هو تكرير حرف واحد أو حرفين في كل لفظة من ألفاظ الكلام المنثور أو المنظوم، فيثقل حينئذ النطق به.و هذا النوع من المعاظلة يشير إلى قرب مخارج الكلمات الذي يلقى بإيراد، ممّا جاء منه قول أبي الطيب المتنبي في قصيدته «**قِفا تريَا وَدقي فهَاتا المَخايلُ**»:

وَ مَن جاهلٍ بي وَ هو يَجهلُ جَهلهُ ... وَ يَجهلُ عِلمي أنَّهُ بى جاهِـــلُ

وَ يَجهلُ أنّي مالـكَ الأرضِ مُعسِرٌ ... وَ أنّي على ظَهرِ السِّماكينِ رَاجِلُ

فقلقلتُ بِالهمِّ الذي قلقلَ الحَشَـا ... قلاقِلَ عِيسٍ كلُّـــهُنّ قلاقِـــلُ

غَثاثةُ عَيشي أن تغَثَّ كـــرامَتي ... وَ ليسَ بغثٍّ أن تغَثَّ المآكـــلُ

(المتنبي،1997م:284و285)

عندما يقرأ المخاطب أبيات مذكورة يصعب له قراءة الألفاظ لأنَّ بعض حروفه مكرراً و يثقل أداءها، مثل «جيم» و «هاء» و «لام» في البيت الأوّل، ثمّ يستمرّ المتنبي هذا الثقل تلوه و يستخدم من القافات و اللامات المتعددة الذي تثقل الكلام أشدّ ثقلاً و كذلک نشاهد في البيت الثالث من «غين» و «ثاء»، كلّ هذه الألفاظ الثقيلة تعتبر من عيوب الكلام و نسمّاها من أنواع المعاظلة اللفظية و هي تبتعد الشعر من جمال و حسنه.

التأتأة الموزونة؛ مشكلة في النطق بتكرار الصوت أو المقطع أو الكلمة، و لسنا هنا طبيباً نفسياً لنحدّثكم عن العلاج و الأسباب، و إنّما نحن هنا لنحدّثكم عن تأتأة المتنبي الموزونة؛ تلك التأتأة التي أحرز فيها

المتنبي قصبة السبق و طبق المفصل، و بحق يعدّ أبو الطيب رائد مدرسة التأتأة في الشعر العربي.نرى نموذجاً أخرى من تكرير الحروف ذات الثقل في تعبير أبي الطيب المتنبي:

و لَســـــتَ بدونِ يُرتجَى الغَيثُ دونَهُ و لا مُنتهَى الجودِ الذي خلفَهُ خَلـــــفُ

و لا واحـــــداً في ذا الوَرى مِن جمَاعَةٍ و لا البَعضَ مِن كلٍّ ولكنّك الضِّعـــــفُ

و لا الضِّعفَ حتى يَتبعَ الضِّعفَ ضِعفُه و لا ضِعفَ ضِعفِ الضِّعفِ بَل مثله ألفُ

(المتنبي،1997م: 204)

هذه الفاءات و الضاءات كإنّها في تتابعها سلسلة و يؤدى البيت إلى ثقل في أداء الألفاظ، و هذا من التعاظل الكلام و لم يخفى للمخاطب ثقل هذه الألفاظ.و على حدّ رأي ابن سنان فمن أقبح ما يكون من التكرار و أشنعه و إذا كان يقبح تكرار الحروف المتقاربة المخارج فتكرار الكلمة بعينها أقبح و أشنع.

5-3- أن ترد ألفاظ على صيغة الفعل

القسم الثالث من المعاظلة أن ترد ألفاظ على صيغة الفعل يتبع بعضها بعضاً، فمنها ما يختلف بين ماض و مستقبل، و منها ما لا يختلف.و أمّا ما يرد على نهج واحد من الصيغة الفعلية فكقول أبي الطيب المتنبي القصيدة «**أجابَ دَمعي و ما الدَاعي سوَى طَلَلِ**»:

ما كـــانَ نَومي إلّا فوقَ مَعرفتي بِـــأنَّ رَأيَک لا يُؤتى مِن الزَّلـــلِ

أقِل أنِل أقطِع احمل علِّ سلِّ أعد زِد هشِّ بشِّ تقضّل أدنِ سُرَّ صِلِ

لَـــــعلَّ عَتبَکَ مَحمُودٌ عَواقبُهُ فرُبّمَا صَحَتِ الأجسامُ بِالعِلـــــلِ

(المتنبي،1997م:259)

فهذه الألفاظ جاءت على صيغة واحدة، و هي صيغة الأمر، كأنّه قال: افعل افعل، هكذا إلى آخر البيت وهذا تكرير للصيغة و إن لم يكن تكريراً للحروف، إلّا أنه أخوه و لا أقول ابن عمه، وهذه الألفاظ متراكبة متداخلة و لو عطفها بالواو كانت أقرب حالاً.في البيت الثاني كما نرى أنّه يأتي اربعة عشر فعل أمر حتّي يثقل أداء البيت للقارئ و يبعد الكلام من فصاحة و بلاغته.

ثمّ يواصل المتنبي كلامه في إتيان هذا النوع من التعاظل و يقول:

لا يَستحي أحَـــــدٌ يُقالُ لَهُ نَضَلوُکَ آلُ بُوَيهِ أو فضَلُوا

قدَرُوا عَفُوا وَ عدوا وَفوا سُئلوا أغنَوا عَلُوا أعلُوا وَلُوا عَدَلوا

فوقَ السَّماءِ وَ فوقَ ما طَلبوا فـــــــإذا أرادوا غايَةً نزَلُوا

(المتنبي،1997م: 328)

عندما يجيء في قصيدة واحدة أفعال قليلة تعطي للجملة فصاحة و إيقاع خاصّة، كأنّ نبراته تصل إلى سمع القارئ متعاقبة و يشعر جمالية متميّزة و لكن هذه القصيدة تفتقد تلک الفصاحة و الموسيقى، و قوله في البيت الثاني من عشرة أفعال من الثقيل الألفاظ.كما يشير أبوالطيب المتنبي إلى دعائه في شخص الذي مطلعه من هذا النوع المعاظلة:

عِش ابقَ اسمُ سُد جُد قُد مُرِ انهَ كسرُ فُه تُسَل غِظِ ارمِ صِبِ احمِ اغزُ اسبِ رُع زَع دِل اثنِ ئَل

وَ هذا دُعاءٌ لَوسكَتَّ كُفِيتهُ لأنّي سألتُ الله فيکَ وَ قد فعَل

(المتنبي،1997م: 259)

كما نلاحظ في فوق يأتي ابوالطيب المتنبي عدّة من الأفعال الأمر الذي يؤتى وراء كلمة أخرى، و إتيان ثاني و عشرين فعل أمر يخوض البيت في ورطة ثقل الكلام الذي يعدّ من عيوب البيت، و من هذا المنطلق

إذا يريد المخاطب قراءة القصيدة يسيئ لسمعه لأنّ اللسان يتحمّل صعوبة لأداء أكثر من عشرون فعل أمر متعاقباً، و هذا تكرار صيغة الفعل يوجّه القصيدة إلى معاظلة الكلام.

5-4- ما تضمن مضافات كثيرة

القسم الرابع من المعاظلة و هو الذي يتضمن مضافات كثيرة كقولهم: سرج فرس غلام زيدٍ، و إن زيد على ذلك قيل: لبد سرج فرس غلام زيد، و هكذا أشد قبحاً و أثقل على اللسان، يعبّر المتنبي عن هذه الظاهرة في القصيدة «**أجاب دمعي و ما الداعي سوى طلل**»:

وَ مَا ثناکَ کلامُ النّاسِ عَن کَرمٍ ... وَ مَن يَسُدّ طَرِيقَ العَارضِ الهطِلِ

أنـــتَ الجَوادُ بِلا مَنٍّ وَ لا کَدَرٍ ... وَ لا مِطالٍ وَ لا وَعدٍ وَ لا مَدُلِ

أنتَ الشُجاعُ إذا ما لم يَطأ فرَسٌ ... غَيـــرَ السَّنوّرِ وَ الأشلاءِ وَ القُلُلِ

(المتنبي،1997م: 259)

كما نلاحظ في الأبيات المذكورة يبدأ المتنبي ثناء ممدوحه و يصل في هذا السبيل إلى نهاية المدح و الثناء و هو عدم المنّ و الوعد و الكدر، و كلّ هذه الأمور من الخلق الحسنة للمدوح، أمّا من جهة بلاغة الكلام و فصاحتها يعدّ من عيوب و سقم الكلام لأنّ هذه الجملات المتسلسة الذي تأتي وراء بعضهم يقللّ من رشاقة الكلام مثل «منٍّ و كدرٍ و مطالٍ و وعدٍ و مدلٍ»، ربّ بعض الناقدين ينظرون إلى هذا النوع من المعاظلة من حسن الكلام لأنّ كلمة ذات ايقاع واحد، و ذلک في رأي إبن أثير و ابن سنان من ثقيل الألفاظ لتتابع إضافات الكثيرة المتعاقبة.

5-5- ما تضمن صفات متعددة

أن ترد صفات متعددة على نحو واحد، و لكي يكون المعنى شريفاً فصيحاً بليغاً، ينبغي أن يتحلّى بصفة الوضوح، سواء أكان هذا الكلام نظماً أم نثراً. كان ابن سنان يرفض الغموض في الكلام و يعتقد بأنّ فرط الإيجاز أو إغلاق النظم يهدى أبيات المعاني للمتنبي إلى التعاظل (الخفاجي،1982م: 259). و على هذا ورد قول أبي الطيب المتنبي في قصيدة «**أظبية الوحش لولا ظبية الأنس**»:

من كلّ أبيض وضّاح عمامته   كأنّما اشتملت نوراً على قـــــبس

دانٍ بعيـــــــدٍ مبغضٍ بهجٍ   أغر حلـــــو ممرٍ لينٍ شـــــرس

ندٍ أبيٍ غرٍ أخي ثقـــــــةٍ   جعدٍ سريٍ ندبٍ رضى نـــــدس

لو كان فيض يديه ماء غادية   عزّ القطا في الفيافي موضع اليبس

(المتنبي،1997م،ص176)

و هذا كله من سلسلة بلا شك، و قليلاً ما يوجد في أشعار الشعراء، و تلك معاظلة معنوية، و إن تغاضينا عن تلك المعاظلة فالبيت الأول لا يسلم أيضاً و لا على مذهب المتنبي نفسه، فالمتنبي بنى بيته على ذكر الصفة و نقيضها، فقال: (دان/بعيد) (محب/مبغض) (حلو/ممر) (لين/شرس)، فلم يلتزم ما اشترطه على نفسه فخرم ما أسّس له في صدر البيت و مكّنه في عجزه؛ فحشر صفتين في حشو البيت دون نقيض (بهج/أغر)، فشردا عن سربه؛ فأورثا عوارا لدى القارئ المتأمل و المنشد المترنم.

و هذه معاظلة لفظية و هي توجد في شعر أبي الطيب كثيراً. و لا يخفى ما في هذا و ذاک من ثقل يمجّه الذوق رغم أنّ المتنبي كان مغرماً بهذا الضرب من الصفات. كما يقول في قصيدة «**سقاني الخمرَ قولکَ لي بحَقي**»:

أرودُهُ مِنـــــــهُ بكالشُّوذانِقِ   بِمُطلقِ اليُمنى طويلِ الفائقِ

عَبلِ الشَّوَى مُقــــارِبِ المرافقِ   رَحبِ اللَّبـــانِ نَائهِ الطَرائقِ

ذي منَخرٍ رَحبٍ و إطلٍ لاحِقٍ شادِخَةٍ غُرَّتهُ كـــــالشّارقِّ

(المتنبي،1997م: 222)

كما نلاحظ في القصيدة المذكورة حضور الكلمة الغريبة و الحوشية مثل «الشوذانق» الذي يكره الأذن من سمعه و يخلّ لهيكل القصيدة و يعدّ من عيوب الشعر لدى كثير من علماء البلاغة. و توجد سلسلة من المضافات المتواصلة الذي يعيب على المتنبي كثير من نقّاد البلاغة، ورد الشاعر في بيت الثاني صفات متعددة مثل «عبل الشوى، مقارب المرافق، رحب اللّبان، و نائه الطرائق».هذا الأمر يثقل للسمع لأنّه يهدى القارئ إلى حالة واحدة في أداء الكلمة و تصبح الجملة مستكرهاً.و يبتعد الفصاحة في البيت الثالثة الذي يقوم المتنبي بإتيان خمس صفات متعاقبة، و إنّ تكرار هذه الصفات يتجمّد جماليّة و حسن إيقاع القصيدة.كما شاهدنا بأنّ المعاظلة اللفظية تمجّ في القصيدة المذكورة أقساماً.

5-6- حوشية الألفاظ

يتحدّث الجرجاني عن إستحسان اللفظ، و أمّا رجوع الإستحسان إلى اللفظ من غير شركٍ من المعنى فيه، و كونه من أسبابه و دواعيه، فلا يكاد يعدو نمطاً واحداً، و هو أن تكون اللفظة ممّا يتعارفه النّاس في إستعمالهم، و يتداولونه في زمانهم، و لا يكون وحشيّاً غريباً، أو عاميّاً سخيفاً، سخفه بإزالته عن موضوع اللغة، و إخراجه عمّا فرضته من الحكم و الصفة (الجرجاني،1988م:6) و الفصاحة عند إبن الأثير تلخّص في حسن الألفاظ لأنّ الكلام الفصيح هو الظاهر البيّن الذيلا يحتاج في فهم فهم ألفاظه إلى مراجعة القواميس و يرجع سبب ذلک إلى كثرة دوران الكلمات في الاستعمال ثمّ إلى مكانة حسنها.لا وجه لتمييز الحسن من القبيح إلّا من طريق السمع.تنافر الكلمات هو وصف في الكلمات مجتمعة يوجب ثقلها على اللسان و عسر النطق بها و ذلک إذا نطقت مجتمعة لا فرادى، و تسمى المعاظلة اللفظية، و تنافر شديد كقول المتنبي:

و لو كانت دمشق ثنى عناني لُبـــــيقُ التّردِ صينيُّ الجفان

يَلُنجُوجيُّ ما رُفِعَت لضيفٍ بـــــهِ النيرانُ ندَيُّ الدّخانِ

(المتنبي،1997م،ص428)

و قد عرف المراغي كراهة في سمع بقوله: هي أن تمجّ الكلمة الأسماع، و تأنف منها الطباع لوحشيتها و غلظتها،(المراغي،ص22) كالجرشّي في قول أبي الطيب المتنبي يمدح سيف الدولة:

أ في الرّأي يشبَهَ أم في السخاء أم في الشجاعةِ أم في الأدبِ

مبـــــاركُ الاسم أغرُّ اللقب كريم الجرشَّي شريــفُ النسَبِ

(المتنبي،1997م:35)

تجد لتأليف الكلمة في السمع حسناً و مزيةً على غيرها، و إن تساويا في التأليف من الحروف المتباعدة. و مثله البارز في القصيدة المذكورة كلمة «كريم الجرشي» و معناه كريم النفس لكن هذه الكلمة تبتعد عن الفصاحة العربية و تكون مستكرهة و نابية.يرى بعض علماء اللغة أن طول حروف الكلمة أي كثرة حروفها سببٌ في التنافر كقول المتنبي:

إنَّ الكرامَ بلا كرامٍ منهُمُ مثلُ القلوبِ بلا سُوَيداواتِهَا

(المتنبي،1997م:73)

البيت من قصيدة يمدح فيها أبا ايوب أحمد بن عمران، و يقول إنّ الكرام من الخيل إذا لم يكن عليها فرسان من هؤلاء الممدوحين، كالقلب دون سويداء. من شروط الفصاحة تكون الكلمة معتدلة غير كثيرة الحروف، فإنّها متى زادت على الصّور المعتادة المعروفة قبحت و خرجت عن دائرة الفصاحة و ذلک مثل «سويداواتها»، هذه الكلمة مع اشتمالهاعلى عيوب أخرى غير مرضية.إنّ فصاحة الكلمة تكون بسلامتها من تنافر الحروف و من الغرابة و الإبتذال و الضعف فإذا لصق بالكلمة عيب وجب نبذها و إطراحها، و

لا يظهر معناها، فيحتاج في معرفته إلى أن ينظر عنها في الكتاب المبسوطة (القزويني،2003م: 14). و يوظّف أبو الطيب المتنبي من هذه الألفاظ الحوشية و الغريبة في قصائده مراراً كقوله:

و حَكى في اللُحومِ فِعلُكَ في الوَفرِ فَأودَى بِالعَنتريسِ الكِنـــازِ

كُلّـــــما جادَت الظُنونِ بِوَعدٍ عَنكَ جادَت يَداكَ بِالإنجازِ

وَ مِن النّاسِ مَن يَجوزُ عَليـــــهِ شُعـــــــراءٌ كأنّهَا الخازبازِ

(المتنبي،1997م: 174)

يأتي الشاعر كلمة «العنتريس» و «الخازباز» في قصيدته يعدّ من كلمات مهجورة يستفيد لفهم معناه من المعاجم القديم، لما يسمع القارئ هذا الألفاظ تأنفها الطباع و تمّجها الأسماع و تنبو عنه ،كما ينبو عن سماع الأصوات المنكرة.

5-7- المنافرة بين الألفاظ في السبك

و هذا النوع لم يحقق أحد من علماء البيان القول فيه، و غاية ما يقال: إنّه ينبغي ألا تكون الألفاظ نافرة عن مواضعها، ثم يكتفي بها القول، من غير بيان و لا تفصيل، حتّى إنّه قد خلط هذا النوع بالمعاظلة، و كلّ منهما نوع مفرد برأسه له حقيقة تخصه، إلّا أنّهما قد اشتبها على علماء البيان فكيف على جاهل لا يعلم. و قد بينت هذا النوع و فصلته عن المعاظلة، و ضربت له أمثلة يستدل بها على أخواتها و ما يجري مجراها. و جملة الأمر أنّ مدار سبك الألفاظ على النوع و الذي قبله دون غيرهما من تلك الأنواع المذكورة، لأنّ هذين النوعين أصلاً سبك الألفاظ، و ما عداهما فرع عليهما، و إذا لم يكن الناثر أو الناظم عارفاً بهما فإنّ مقاتله تبدو كثيراً. و حقيقة هذا النوع الذي هو المنافرة: أن يذكر لفظ أو ألفاظ يكون غيرها مما هو في معناها أولى بالذكر. و على هذا فإن الفرق بينه و بين المعاظلة أنّ المعاظلة هي التراكب و التداخل إما في الألفاظ أو في المعاني، على ما أشرت إليه، و هذا النوع لا تراكب فيه، و إنّما هو إيراد ألفاظ غير

لائقة بموضعها الذي ترد فيه.و هو ينقسم قسمين: أحدهما يوجد في اللفظة الواحدة، و الآخر: في الألفاظ المتعددة (إبن الأثير،1973م:314-315).

فأمّا الذي يوجد في اللفظة الواحدة فإنه إذا أورد في الكلام أمكن تبديله بغيره ممّا هو في معناه سواء كان ذلك نثراً أو نظماً. و أمّا الذي يوجد في الألفاظ المتعددة فإنّه لا يمكن تبديله بغيره من الشعر، بل يمكن ذلك في النثر خاصة لأنّه يعسر في الشعر من أجل الوزن. فممّا جاء من القسم الأول قول أبي الطيب المتنبي«**نرى عظما بالبين و الصدّ أعظم**»:

فَلا يَبرمُ الأمـــرُ الذي هُو حاللٌ   وَ لا يَحللُ الأمـرُ الذي هُو يَبرُمُ

و لا يَرمَحُ الأذيـــالَ مِن جَبَريّةٍ   وَ لا يَخدُمُ الدُّنيـا و إيّاهُ تَخدُمُ

وَ لا يَشتهي يَبقى وَ تَفنى هِبَاتُهُ   وَ لا تَسلُمُ الأعداءُ مِنهُ و يَسلُمُ

(المتنبي،1997م: 374)

فلفظة «حالل» مستقبح و نافرة عن موضعها و إن جاز لضرورة الوزن، و كانت مندوحة عنها، لأنه لو استعمل عوضاً عنها لفظة ناقض فقال:

فَلا يَبرمُ الأمرُ الذي هُو ناقضٌ   وَ لا يَنقضُ الأمرُ الذي هُو يَبرُمُ

و له كثير من أمثال هذه المتجوزات المكروهة و لا محل سردها. و لا يندر أن يضحى بصحة التعبير اللغوى انقياداً لضرورة الوزن كقوله:

لَو كنتَ حشوَ قَميصي فوقَ نُمرُقِهَا   سَمِعتَ لِلجـــنّ في غيطانِهَا زَجَلا

حتّى وَصَلتُ بِنفسٍ ماتَ أكثرُها   وَ لَيتَني عِشتُ مِنهَا بِالذي فضَلا

(المتنبي،1997م: 283)

يقول لو كنت بدلي في قميصي فوق نمرق ناقتي سمعت أصوات الجن من منخفضات هذه المفاوز أي أنها مساكن الجن لبعدها من الإنس والعرب إذا وصفت المكان بالبعد جعلته مساكن الجن كما قال الأخطل، ملاعب جنانٍ كأن ترابها، إذا أطردت فيها الرياح مغربل، وبيت المتنبي من قول ذي الرمّة، للجنب بالليل في حافاتها زجل، كما تجاوب يوم الريح عيشوم، مات أكثرها ذهب أكثر لحمها وقوتها لما قاست من هول الطريق وشدته ثم تمنى أنه يعيش بما بقي من نفسه ليقضي حق خدمة الممدوح. و مقتضى المعنى الواضح أن يقول: «و ليتني أعيش». و من هذا القسم وصل همزة القطع، و هو محسوب من جائزات الشعر التي لا تجوز في الكلام المنثور و كذلك قطع همزة الوصل، لكن وصل همزة القطع أقبح، لأنّه أثقل على اللسان.و عليه ورد قول أبي الطيب المتنبي:

يَرَاهُ النّاسُ حَيثُ رَأَتهُ كَعبٌ — بِــــأرضٍ مَا لِنازِلِهَا استِتارُ

توسطه المفاوز كــــلّ يومٍ — طلاب الطالبين لا الانتظار

(المتنبي،1997م: 151)

فقوله «لا الانتظار» كلام نافر عن موضعه. و قد يأتي اللفظ غير فصيح إذا خالف القواعد الصرفية الأخرى غير الادغام، كقول المتنبي في مدح سيف الدولة:

إذا كانَ بعضُ النّاس سيفاً لدولةٍ — ففي النّاسِ بوقاتُ لها و طُبولُ

أنا السّابقُ الهادي إلى ما أقولهُ — إذِ القولُ قبلَ القائلينَ مقــولُ

(المتنبي،1997م: 265)

البوق قد جاء في كلام العرب أنشد الأصمعي، زمر النصارى زمرت في البوق، ومنه سميت الداهية بائقةً و يقال أباق عليهم الدهر أي هجم عليهم كما يخرج الصوت من البوق و قد جمع بوق جمعاً مؤنثاً سالماً و الصحيح جمعه على أبواق جمع تكسير.إتيان بالضمير متصلاً بعد إلّا كقول المتنبي في بدر بن عمّار:

لم ترَ مَـــن نَادمتَ إلّاكا لا لِسوَى وُدّک لي ذاكـــا

وَ لا لحبيبتهَـــا ولكِنـــنى أمسَيتُ أرجوکَ و أخشاكا

(المتنبي،1997م: 231)

و ممّا جاء من القسم الثاني – الذي يوجد في الألفاظ المتعددة – قول أبي الطيب أيضاً: سِربٌ مَحاسِنهُ حُرِمتُ ذواتِها

رعـــدُ الفَوارسِ مِنکَ في أبدانِها أجرَى مِن العَسَلانِ في قَـــــنواتِها

لا خَلقَ أكرمُ منِکَ إلّا عَـارِفٌ بِکَ رَاءَ نفسَکَ لَم يَقُل لَکَ هاتِها

غَلِتَ الذي حَسَبَ العُشورَ بِآيةٍ ترتيلـــکَ السُّوراتِ مِن آيـــاتِهَا

(المتنبي ،1997م: 74)

يقول الذي يحسب العشور يعني القرآن والقرآن كله عشور و هي معجزة واحدة و ترتيلك في حسن قراءتك و بيانك معجزة أيضا فمن سمع ترتيلك فلم يعده آيةً فهو غالط بآية لأن ترتيلك في الإعجاز مثلها فوجب الحاقه بها حتى يقال القرآن معجزة و ترتيلك معجزة فهما معجزتان.لا أحد اسمح منك إلا إنسان رآك فعرفك فلم يسألك أن تهب له نفسك وهذا من قول الآخر، و لو لم يكن في كفه غير روحه، لجاد بها فليتق الله سائله، فإنّ عجز هذا البيت نافرٌ عن مواضعه، و رواية الديوان « لا خلق أسمع»، «راء» مقلوب «راى»

7-نتائج البحث

ممّا تقدّم نستخلص:

يتناول هذا البحث ظاهرة المعاظلة اللفظية في شعر أبي الطيّب المتنبّي حيث يتجسّد هذه ظاهرة من خلال أساليب البلاغة التّي تجعل العمل الأدبي يتميّز من غيره من أنماط الكلام.و قد تناول البحث هذه الظاهرة من خلال آراء ناقد و بلاغي كبير هو إبن الأثير الذي تعمق فيها و قلب الوجوه و ركز على المعاظلة اللفظية و يعتقد بأنّها يتّجه الكلام إلى الثقل و صعوبة التعبير حيث يبتعد من فصاحة الكلام و جماليتها. المتنبّي من أكابر الأدب في اللغة العربية أمّا فنلاحظ بظهور هذا التعاظل في بعض أبياته، و يتطرق ابن الأثير إلى هذا الموضوع من منظر نقدي و يعدّها من عيوب الكلام و يقسّمها إلى ثمانية أقسام.هذا و فإنّ بعض قصائد المتنبّي تتورّط في هذا العيب الشعري، و لو كان قصده إزدياد الجماليّة ولكن يقلّل من فصاحة الأبيات و إيقاع القصائد

المنابع و المآخذ

- القرآن الكريم.
- فرّوخ، عمر (1981م).«**تاريخ الأدب العربي الأعصر العباسية**»، بيروت: دار العلم للملايين، الطبعة الأولى.
- المتنبي، أبو الطيب(1997م).«**ديوان المتنبي**»، بيروت: دار الكتّاب العربى، الطبعة الأولى.
- الحوفي، احمد و بدوي ، طبانه (1973م).«**المثل السائر في أدب الكاتب و الشاعر**»، قاهرة: دار نهضة مصر للطبع و النشر ، ط2.
- المراغي، أحمد مصطفى، (لا تا) «**علوم البلاغة**»، بيروت: دار الكتب العلمية.

- الفاخوري، حنا (1986م).« **الجامع في تاريخ الأدب العربي الأدب القديم**»، بيروت: دار الجيل، الطبعة الأولى.

- الخفاجي، إبن سنان (1982م).«**سرّ الفصاحة**»، مصر:دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى.

- القزويني، الخطيب (2003م).«**الإيضاح في علوم البلاغة**»، بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى.

- أبو هلال، العسكري (1981م).«**كتاب الصناعتين**»، تحقيق د. مفيد قميحة، بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى.

- جعفر، قدامة، (لاتا).«**نقد الشعر**»، تحقيق كمال مصطفى، القاهرة: مكتبة الخانجي، الطبعة الأولى.

- الجرجاني، عبدالقاهر (1988م).«**أسرار البلاغة**»، تعليق: محمود محمّد شاكر، القاهرة: مطبعة المدنى، الطبعة الأولى.